قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما أوَّل ما يجب على العباد؟

ج: أوَّل ما يجب على العباد: معرفةُ الأمر الَّذي خلقهم اللهُ له، وأخذَ عليهم الميثاقَ به، وأرسل به رسلَه إليهم، وأنزل به كتبَه عليهم، ولأجلِه خُلِقت الدُّنيا والآخرةُ، والجنَّةُ والنَّارُ، وبه حقَّت الحاقَّةُ، ووقعتِ الواقعةُ، وفي شأنِه تُنصَب الموازينُ، وتَتطايرُ الصُّحفُ، وفيه تكون الشَّقاوةُ والسَّعادةُ، وعلى حَسَبِه تُقسَمُ الأنوارُ، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النُّور].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

شرع المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ يُنفِّذ خطَّته التي بها وَعد في وضع كتابه بجعله على هيئة السُّؤال والجواب، وأشار إلى السُّؤال برمز (س)، وإلى الجواب برمز (ج).

والرَّمز إذا كُتِب فإنَّه يُقرَأ بمُسمَّاه لا باسمه؛ فيُقال هنا: (سؤالٌ)، ولا يُقال: (سين).

ومِنه: الشَّائع في رموز المحدِّثين؛ فإنَّهم يُشيرون لـ(البخاريِّ) بـ(خ)؛ فإذا وَقع الرَّمز المذكور لم يَصحَّ أن يُقرَأ: (خاءٌ)؛ بل يُقرأ: (البخاريُّ).

وإلى ذلك أشرتُ بقولي:

الرَّمْزُ حَيْثُ جَاءَ بِالْمُسَمَّى ... يُنْطَقُ لَا بِإِسْمِهِي إِنْ أُمَّا[1]

---

(١) أي قُصِدَ، و(الألف) للإطلاق.

وابتدأ المصنِّف سؤالاته بسؤالٍ عظيمٍ؛ فقال: (ما أوَّل ما يجب على العِباد؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (أوَّل ما يجب على العِباد: معرفةُ الأمر الَّذي خلقهم اللهُ له) إلى آخر جوابه.

فأوَّل واجبٍ على العباد: معرفة أمرٍ عظيمٍ؛ و(**الأمر**): المُبتغَى المُراد حصوله.

وعَظَّمه المصنِّف بوَصْفه بإحدى عشر جُمَلةً:

الأولى: في قوله: (الَّذي خلقهم اللهُ له).

والثَّانية: في قوله: (وأَخذ عليهم الميثاقَ به)؛ و(**الميثاق**): العهد المُحكَم، وسيأتي بيان هذا (الميثاق) في موضعه.

والثَّالثة: في قوله: (وأرسل به رُسلَه إليهم).

والرَّابعة: في قوله: (وأنزل به كُتبَه عليهم).

والخامسة: في قوله: (ولأجلِه خُلِقت الدُّنيا والآخرةُ).

والسَّادسة: في قوله: (والجنَّةُ والنَّارُ) أي خُلِقتا لأجله كذلك.

والسَّابعة: في قوله: (وبه حقَّت الحاقَّةُ، ووقعتِ الواقعةُ).

و(**الحاقَّة**) و(**الواقعة**): اسمان لـ(يوم القيامة):

- سُمِّي (حاقَّةً)؛ لكونه واجبَ الوقوع، لازمَ الحدوث.
- وسُمِّي (واقعةً)؛ لأنَّه متحقِّق الحصول.

والثَّامنة: في قوله: (وفي شأنِه تُنصَب الموازينُ) أي تُوضَع؛ و(**الموازين**): جَمْع (ميزانٍ)، وسيأتي بيانه في موضعه.

والتَّاسعة: في قوله: (وتَتطايرُ الصُّحفُ) أي تُنشَر؛ وهي صُحف الأعمال، وسيأتي بيانُها في موضعها.

والعاشرة: في قوله: (وفيه تكون الشَّقاوةُ والسَّعادةُ).

والحادية عشرة: في قوله: (وعلى حَسَبِه تُقْسَمُ الأنوارُ) أي في الدُّنيا والآخرة؛ فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ به لِمَن شاء نورًا في الدُّنيا ونورًا في الآخرة:

- **فمِن الأوَّل**: قوله تَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام:١٢٢].
- **ومِن الثَّاني**: قوله تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[التَّحريم:٨].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما هو ذلك الأمر الَّذي خَلق الله الخَلق لأجله؟

ج: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدُّخان].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص:٢٧].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

وقال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّاريات] الآيات.

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذَكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ سؤالًا آخر يتعلَّق بسابقه؛ فقال: (ما هو ذلك الأمر الَّذي خَلق الله الخَلق لأجله؟) أي مع ما ذُكِر مِن أنواع التَّعظيم المتقدِّمة؛ فهو ما خُلِق الخَلقُ لأجله، وهو أوَّل واجبٍ، وهو الَّذي لأجله خُلِقت الجنَّة والنَّار والدُّنيا والآخرة، إلى آخر ما سَبق.

ثمَّ أجاب عنه؛ فقال: (قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الدُّخان]) إلى آخر كلامه؛ مُبيِّنًا أنَّ الأمر الَّذي خَلق الله الخَلْق لأجله هو عِبادته سُبْحَانَهُ.

وذكر المصنِّف في تقرير هذا المعنى أربع آياتٍ:

فالآية الأولى والثَّالثة تُبيِّنان أنَّ الله خَلق الخَلق بالحقِّ؛ في قوله: (﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدُّخان: ٣٩])، وقوله: (﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٢]) أي ما يَلزم وقوعه ويَثْبُت.

ونَفى في الآية الثَّانية كَوْنَ الخَلق مخلوقين باطلًا؛ فقال: (﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص:٢٧])، و(**الباطل**): ما لا حقيقةَ له ولا منفعةَ فيه.

ثمَّ جاءت الآية الرَّابعة مبيِّنةً للحقِّ المرادِ إحقاقُه النَّافي للباطل، وهي قوله تَعَالَىٰ: (﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّاريات])؛ إذ بُيِّن فيها الأمر الَّذي خُلِق الخَلْق لأجله؛ وهو عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإلى ذلك أشرتُ بقولي في «القَريض المُبدَع»:

وَقَوْلُهُ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ ... الْآيَةَ التَّعْلِيلُ جَاءَ مَنَّا
مُبَيِّنًا لِلْحِكْمَةِ الشَّرْعِيَّهْ ... مِنْ خَلْقِنَا وَالْجَعْلِ لِلذُّرِيَّهْ
أَنْ نَعْبُدَ الرَّحْمَنَ بِالْخُضُوعِ ... وَحُبِّهِ وَالسِّرُّ فِي الْمَجْمُوعِ

فحكمة خَلْق الخَلْق: هي عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وإلى ذلك أشار المصنِّف في «سُلَّم الوصول» بقوله:

اعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا ... لَمْ يَتْرُكِ الْخَلْقَ سُدًى وَهَمَلَا
بَلْ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَعْبُدُوهُ ... وَبِالْإِلَهِيَّةِ يُفْرِدُوهُ

وهذه تُسمَّى (عِلَّة الوجود)؛ وهي هنا علَّةٌ غائيَّةٌ؛ أي تُبيِّن الغاية الَّتي خُلِق الخَلق لأجلها.

فـ (علَّة الوجود) نوعان:

- **أحدهما**: عِلَّةٌ غائِيَّةٌ؛ وهي المتأخِّرة في الوجود عن معلولها - أي ما جُعِلت عِلَّةً له.

- **والآخر**: عِلَّةٌ مُوجِبةٌ؛ وهي المتقدِّمة على معلولها.

والثَّانية هي المرادة عند الفقهاء في قولهم: (الحُكم يدور مع علَّته).

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما معنى (العبد)؟

ج: العبدُ إن أُريد به المعبَّدُ - أي المذَلَّل المُسخَّر - فهو بِهذا المعنى شاملٌ لجميع المخلوقاتِ مِن العَوالِم العُلويَّة والسُّفليَّة؛ مِن عاقلٍ وغيرِه، ورطبٍ ويابسٍ، ومُتحرِّكٍ وساكنٍ، وظاهرٍ وكامنٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، وبرٍّ وفاجرٍ، وغير ذلك.

الكلُّ مخلوقٌ لله عَزَّوَجَلَّ، مَرْبوبٌ له، مسخَّرٌ بتسخيره، مدبَّرٌ بتدبيره.

ولكلٍّ منها رَسمٌ يقفُ عليه، وحدٌّ ينتهي إليه.

كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى، لا يتجاوزُه مِثقالَ ذرَّةٍ، ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام]، وتدبيرُ العَدْل الحكيمِ.

وإن أُريد به العابدُ المحِبُّ المُتذلِّل خُصَّ ذلك بالمُؤمِنين الَّذين هم عِبادُه المُكْرَمون، وأولياؤه المتَّقون؛ الَّذين ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ سؤالًا آخرَ؛ هو (ما معنى العبد؟).

ثمَّ أجاب عنه ببيان أنَّ (العبد) له معنيان:

- **أحدهما**: أن يكون بمعنى (المُفعَّل)؛ أي (المعبَّدُ)؛ وهو الخاضع المُسخَّر؛ وهذا يشمل المؤمن والكافر، والبَرَّ والفاجر؛ فكلُّ مَن في السَّماوات والأرض خاضعٌ لله

مسخَّرٌ له.

- **والآخر**: أن يكون بمعنى (المُتفعِّل)؛ أي المُتعبِّد؛ وهو الخاضع المُحِبُّ؛ وهذا يختصُّ بالمؤمنين وأولياء الله المُتَّقين.

فـ (العبد) يجيءُ:

✓ **تارةً يُراد به المعنى الأوَّل**؛ ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

✓ **وتارةً بالمعنى الثَّاني**؛ ومنه قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩].

وهذه القِسمة ترجع إلى أصلٍ كُلِّيٍّ وهو (عبودِيَّة الخَلْق لله)؛ **فـ (عبوديَّتهم) نوعان**:

- **أحدهما**: عبودِيَّةٌ عامَّةٌ؛ وهي عبودِيَّة الخَلْق كلِّهم لله؛ بكونِهم خاضعين له، مُدبَّرين بأمره، مُسخَّرين بتسخيره، لا يخرجون عن حُكمه.

- **والآخر**: عبودِيَّةٌ خاصَّةٌ؛ وهي للمؤمنين فقط؛ بكَونِهم مُتقرِّبين لله بمَحابِّه ومَراضِيه.

ذَكر هذا ابن تيميَّةَ الحفيدُ، وصاحبه ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين»، وعبد الله أبا بُطَيْنٍ في جوابٍ له.